الانتحـــــار

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

« نعم ، لابد مما ليس منه بد . وستنتهى الحياة على كل حال ، طال العمر أم قصر ، فلم لا أختمها بيدى وأستريح من هذا العذاب ؟ »

كذلك كان يحدث نفسه وهو جالس إلى مكتبه ، وأمامه عدة رسائل كتبها ووضعها فى ظروفها ، وعنونها ، ونشفها ، وألصق عليها طوابع البريد ، ولو أنك فى هذه الساعة سألته عن الباعث أو البواعث له على هـذا العزم ، لقال لك إنها ليست مسألة بواعث ، وإنما هى مسألة آلام فى معدته لم يبق له صبر عليها ، وعجز طب الأطباء عن تخفيفها ، وما بقى فى البلد طبيب إلا استشاره ، وما قرأ إعلاناً فى صحيفة عن دواء يلطف هذه الأوجاع إلا اشتراه وجربه ، فذهب كل ذلك مع الريح ، وكانت معدته توسعه إيلاماً كلما أوسعها تطبيباً ، فكأنه لا يضع فيها أشفية ، وإنما يضع فيها إبراً أو أظافر ومخالب وأنياباً ! وما أكل شيئاً إلا نفخه وتخمر فى جوفه وفارت منه غازات ترتق إلى الصدر والقلب وتثقل عليهما وتخزه هنا وهناك فيروح يبلع الفحم قرصاً وراء قرص ، والغازات كما هى ، لا يمتصها أو يطلقها أو يخفف ضغطها وشكّها شئ ، فتلفت أعصابه ويئس من الشفاء ، وعزم آخر الأمر على الانتحار

وكانت له زوجة وبنون ، وبيت طويل عريض فيه خدم وحشم ، ولكن آلامه سوّدت عيشه ونغصت حياته ، وحرمته ما كان خليقاً أن يفوز به من المتع ، فالموت لا يفقده لذة موجودة ، ولعله يريح آله مما يحملهم معه من المتاعب والغصص ، ويتيح لهم أن ينعموا بماله ، وأن يخلو صفو حياتهم من كدر حياته

أما الرسائل التى أسلفنا الاشارة اليها فكتبها إلى الصحف ينبى نفسه فيها ، ويحذر قراءها من الاعلانات المغرية وما تزعمه من قدرة الأدوية على الشفاء السريع ، وأخرى كتبها إلى «النيابة» حتى لا تزعج أهل بيته بالسؤال والتحقيق ، فان « للنيابة » ولعاً بتقصى أسباب الانتحار كأنما حياة المرء هبة من هذه « النيابة » أوعارية ، فهو مسئول عنها قِبَلها !

ولما صح عزمه على الانتحار قعد يفكر فى وسائله ، وأدواته ، ولكنه استقبحها جميعاً ، ولم يرض عن واحدة منها ، وبدا له أن من السخافة وقلة العقل أن يلقى بنفسه من فوق السطح مثلاً ، فقد يتحطم جسمه ولا يموت ! أو أن يغرق نفسه فى النيل ، فقد يراه أحمق فيدركه وينقذه ، أو قد تعلق جثته بشىء فتظل راسبة ولا يهتدى اليها أحد ! ولم ير أنه يطيق أن يسدد الى رأسه مسدساً ، أو إلى قلبه ، ولا أن يغمد فى صدره سكيناً أو يبقر به بطنه ، كلا ! هذه الميتات جميعاً قبيحة ، وفى صورها هوان وحماقة ؛ إنما الميتة الحسنة أن يستلقى على سريره ، ويضع إلى جانبه طشتاً على كرسى ، ثم يقطع شرياناً فيلحّ عليه النزف حتى يموت ، فى سكون وبلا ألم

واستغرب لما انتهى الى هذا الرأى ، أن يرى نفسه منشرح الصدر ، وأنه لم يعد يشعر حتى بتلك الآلام التى أغرته بالتماس الموت وحرضته على نشدانه ! فهز رأسه متعجباً وقال : إذا كانت هذه هى البداية فلا شك أن الخاتمة أحسن . وتمنى لو تيسر له أن يرى نفسه مسجى فى أكفانه والناس حوله يبكون ويندبون ، ويثنون عليه بالذى « كان » أهله ! وتصور نفسه محمولاً على الأعناق وخلفه حشد عظيم من الأصدقاء والكبراء ، وكبر الأمر فى وهمه حتى خيل اليه أنه الآن راقد فى النعش ، فتحرك حركة من يريد أن يطل على مشيعيه ! ثم أفاق من هذا الحلم وابتسم ! ولم تكن هذه ابتسامة السرور ، وإنما كانت ابتسامة الأسف على أنه سيحرم لذة هذا المنظر

ودق الجرس فجاءت الخادمة ، وكانت فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها ، ولم تكن جميلة ولكنها لم تكن دميمة ، وكان يحنو عليها لأنها يتيمة لا أب لها ولا أم ، ولا أهل فيما يعرف ، فلما أقبلت عليه رق لها قلبه من العطف ، وقال لها :

« اسمعى ! خذى هذه الرسائل وضعيها فى صندوق البريد . فاهمة ؟ وخذى هذا لك . »

ونهض وهو يناولها ورقة بجنيه ، فدهشت المسكينة ، فما لها عهد بمثل هذا الجود ، وما وهبها أحد أكثر من قرش وقالت :

« لى أنا ؟ »

فوضع راحته على كتفها وقال : « نعم لك أنت . ولم لا ؟ إنك فتاة طيبة ، وأنا راض عنك »

فقالت المسكينة : « ولـكن ماذا تقول ستى ؟ إنها إذا رأته معى ستظنني سرقته »

فقال : « كلا . لا تخافى . اطمئني ! »

وأدناها منه وقبلها على خد ، ثم أدار وجهها ليقبّل خدها الآخر ، فلمحت الفتاة أوسط أبنائه ، وخشيت أن يثرثر لأمه بما رأى ، فارتدت عن سيدها محتجة وقالت بصوت عال :

« عيب ياسيدى ، عيب ! أنا بنت يتيمة ، وأنت رجل كبير . . . تؤ . . تؤ . . عيب ! »

فبهت الرجل ، فقد كانت قبلته عن عطف أبوى ، ومن كرم النفس ومروءة القلب ، وساءه جحودها وسوء ظنها ، وأغضبة هذا التأويل ، فقال :

« ولـكن يا بنتى ماذا حصل ؟ أى عيب ؟ »

فقالت بصوت أعلى « أقول لك عيب ياسيدى ، لالالا . . أنا فى أمانتك . . حرام عليك يا سيدى ! وأنت رجل كبير »

ولم يكن يرى ابنه فلم يفطن إلى الباعث لها على هذا الاستهجان ؛ أما ابنه فرأى وسمع ، وأسرع إلى أمه ينبئها ويقص عليها الحكاية فنهضت الأم كالمجنونة إلى هذا الزوج الذى يتغفلها ويزعم نفسه مريضاً مدنفاً ويروح يقبل الخادمات ! ومن يدرى ماذا يصنع غير غير ذلك ؟ ومن الذى يمكن أن يثق به أو يصدقه بعد هذا ؟

وكان الرجل قد طرد الخادمة من حضرته ، لما رآها تلج فى الاستنكار وتأبى إلا أن تسىء تأويل الحادثة ، فخرجت ، ولم تكد تفعل حتى دخلت الزوجة كاللبوة الهائجة :

« معلوم ! معلوم ! تدعى المرض ، وتقول لبعدوا عنى وخلونى أستريح ، لتخلو بالخادمة فتقبلها وتحضنها ! ما شاء الله ! هل المريض يعانق الخادمة ؟ »

فطار عقل الرجل ، وله العذر ، وخطر له أن الخادمة هى التى ذهبت تشكو إلى زوجته ، وتذكر فى هـذه اللحظة أنه أعطاها الرسائل ، وأن فيها نعيه إلى الصحف والنيابة ، ولـكن الغضب صرفه عن الموت ، وفتر الرغبة فيه ، وأحس أنه لا يريد أن يموت ، بل أن يميت — يقتل هذه الخادمة اللعينة التى يحسن اليها فتسيء اليه ، وتشنّع عليه ، وتحيل البيت قطعة من جهنم ، فترك زوجته تتكلم وخرج يقول :

« أين هى ؟ أين هى ؟ »

وعرف أنها خرجت ، فانطلق وراءها ، ليسترد الرسائل منها ، ويرى له بعد ذلك رأياً فيها — نعنى فى الفتاة . وبصرت به الخادمة مقبلا ، ورأسه عار ، ووجهه مضطرم ، وكانت تحس فى قرارة نفسها أنها ظلمته وتجنّت عليه ، فأيقنت أنه خرج وراءها هائجاً ، وأنه يطلبها ليضربها ، فراحت تعدو ، فلم يسعه إلا أن يجرى وراءها ، ولـكنها فى الثامنة عشرة من عمرها ، وهو فى الخامسة والأربعين ، فما عسى قدرة مثله على إدراك مثلها ؟ فأخذ يصيح ويدعوها أن تقف ويناشد الناس أن يمنعوها ، وهى كلما حاول أحد أن يصدها تنفلت منه ، وتزعم له أن سيدها يهم بقتلها وتستحلفهم أن يردوه عنها . وتبعهما أطفال الحارة وأهل الفضول من الرجال والنساء ، وأخيراً لحق بها الرجل ، لأن الناس استوقفوها ، فقبض على يدها وانتزع منها الرسائل وهو يلهث

وكان من السهل بعد ذلك أن يطلع زوجته على الرسائل ، وأن يقنعها بأن من يروم الانتحار لا يتبع الخادمة عينه

ونام صاحبنا فى ليلته تلك نوماً عميقاً هادئاً لا حلم فيه ، ولم يشعر بعمدته حتى ولا فى الصباح ، فتعجب وهو يتمطى ويتثاءب فما نام قط هذا النوم المريح فى السنوات الأخيرة ، وأقبل على الطعام فالتهم منه شيئا غير قليل ، ولم يكن يفطر قبل اليوم ، وكان يدخن على ريق النفس ، ويستغنى بالقهوة عن الطعام ، فقال لزوجته :

يظهر أن الجرى نفعنى أمس . . والغضب أيضا ! لقد حرك دمى فى عروقى فزايلنى الفتور ، ونشطت . . . نعم إن حاجتى هى إلى ما ينشط جسمى ، فليت لى كل يوم خادمة أقبلها فيسوء بى ظنك ، فتثور نفسى ! »

فضحكت الزوجة وقالت : « لقد كنت مجنونا ! وهل ينتحر إلا مجنون ؟ »

فقال : « نعم ، ولـكن الأطباء هم الذين أجنونى . والغريب أنى لم أجد واحدا من بينهم يشير علىّ بالرياضة — ليس عندهم إلا وصفاتهم التى لا تنفع . . . أقول لك ! سأكتب هـذا إلى الصحف ، وأفضح طب الأطباء »

ولـكنه لم يكتب ، لأنه شغل بالرياضة فى ناد قريب من بيته ، فتولينا نحن عنه ذلك ، فهل بلّغنا ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى